

الفصل الأول

شجرة العائلة

- الأب من رجال القضاء من أهل الريف ، والأم تركية من أهل البحر .
- جده لأبيه كان مجاوراً في الأزهر مع الشيخ محمد عبده .
- زملاء والده في الدراسة الزعيم الوطني مصطفى كامل باشا وأستاذ الجيل لطفى السيد باشا وشيخ القضاة عبد العزيز فهمي باشا ورئيسا الوزراء عبد الخالق ثروت باشا وإسماعيل صدقي باشا .
- المطرب القديم عبده الحامولي أحيا حفل زفاف والدته .
- لطمت العروس عندما اكتشفت أن مرتب العريس وكيل النيابة عشرة جنيهات فقط . ثم أصبحت صاحبة عزة .

بطاقة الميلاد

الاسم : حسين توفيق .

اسم الوالد : إسماعيل .

اسم الجدة : أحمد الحكيم .

اسم الأم : أسماء .

اسم الأب : سليمان .

اسم الجدة : ميلاد البسطامي .

مكان الميلاد : حي محرم بك - الإسكندرية .

تاريخ الميلاد : الساعة الرابعة فجر يوم ٩ أكتوبر ١٨٩٨ .



موكب الزعماء والعظماء

الجد للأب : الشيخ أحمد الحكيم ، فلاح من أعيان قرية صفط الملوك بحيرة ، كان مجاوراً في الأزهر مع الشيخ محمد عبده ، انقطع عن الدراسة للزراعة حيث ورث عن آبائه ثمانين فداناً .

كان رجلاً مزواجاً ، على ذمته أربع زوجات غير المطلقات . وله من كل زوجة ومطلقة أولاد ، بلغوا في مجموعهم عدداً كبيراً ، إلى درجة أنه كان لا يميز بعضهم من بعض ، فإذا جلس على المصطبة ، ومر أمامه صبيّ منهم ، سأله :
- أنت مين يا ولد ؟ فيجيبه مثلاً قائلاً :

- أنا ابن ستوتة أو خدوجة أو هانم أو خضرة .

وكان إسماعيل الحكيم ، والد توفيق الحكيم ، ابن الزوجة الأولى المتوفاة ، الذي مضى في طريق التعليم حتى نهاية الشوط ، فالتحق بمدرسة « الألسن » مع زميل له - هو عبد العزيز باشا فهمي ، شيخ القضاة فيما بعد ، وأحد الزعماء الثلاثة المطالبين بالاستقلال مع سعد زغلول باشا وعلى شعراوي باشا ، ثم تركاها إلى مدرسة الحقوق - التي كان من بين زملائها فيها وقتئذ إسماعيل صدق باشا وعبد الحالق ثروت باشا رئيسا الوزراء فيما بعد ، وأستاذ الجيل أحمد لطفى السيد باشا ، أول رئيس للجامعة المصرية ، الذي رشح في بداية ثورة ٢٣ يوليو رئيساً للجمهورية .

وقد أصدر إسماعيل الحكيم في ذلك الوقت بالاشتراك مع عبد الخالق ثروت وإسماعيل صدقي ولطفي السيد وعبد الهادي الجندی ومحمود عبد الغفار مجلة قانونية اسمها « الشرائع » .

كما زامل الزعيم الوطني مصطفى كامل الذى التحق بالسنة الأولى عندما كان هو في السنة الرابعة عام ١٨٩١ .

وقبل أن يلتحق بمدرسة الألسن هو وزميله عبد العزيز فهمي ، كان لها اتصال بالأزهر فقرأ القرآن وكتب الفقه وغاصا معاً في كتب الشعر والأدب القديمة .

وقد ورث عن أبيه خمسة أفدنة فقط ، وعين بعد التخرج في وظيفة كاتب بمرتبة خمسة جنيهات . أورد توفيق الحكيم في كتاب « سجن العمر » كلمةً بخطه في دفتره الذى كان يسجل فيه أحداث حياته ، فقال :

- خرجت من مدرسة الحقوق ، وحصلت على الشهادة النهائية في علم الحقوق « ليسانسيه » وانسلكت ضمن مستخدمي الحكومة ، وعينت كاتباً « ظهورات » في محكمة طنطا ، مع قاضى التحقيق محمد بك صالح وأحمد أفندى عبد الرازق .

وتنقل بعد ذلك بين أقاليم الوجهين القبلى والبحرى ، فقد رقى إلى معاون نيابة في ملوى ، ونقل منها إلى أسيوط وجرجا . ثم رقى إلى مساعد نيابة في إيتاى البارود ، ونقل منها إلى سوهاج ، ثم إلى بنها والمحلة الكبرى . وكان مرتبه قد وصل إلى عشرة جنيهات .

وعندئذ فكر في الزواج .

أهل الريف وأهل البوغاز

وإذا كانت أسرة أبيه ، أسرة مصرية صميمة من الفلاحين أهل الريف فإن أسرة والدته من أهل البحر ، ممن أطلق عليهم اسم « البوغازية » نسبةً إلى بوغاز الإسكندرية .

يقول توفيق الحكيم في كتاب « سجن العمر » :

- يظهر أن أصل تلك الأسرة من الترك أو الفرس أو ألبانيا . إن سحنة والدتي وجدتي ، وما لها من عيون زرقاء ، تنمّ عن أصل غريب على كل حال . ولم أرث أنا ولا شقيقى هذه الزرقة ، ولا ما يقرب منها ؛ لأن سحنة والدتي الفلاح القح ، كانت فيما يبدو قديرةً على صبغ بحر أزرق بأكمله .

وكان جدّ والدتي لأُمها يسمى « كلا يوسف » وقيل إنه من « قوله » مسقط رأس محمد على الكبير ، وجدها لأبيها كان يسمى الحاج ميلاد البسطامي ابن سليمان البسطامي الذي كان يمتلك مكتبةً ثمينة ، وكان صديقاً للعالم اللغوي الشيخ حمزة فتح الله زوج إحدى خالات والدته . وكانت الأم تعتبره من الأولياء والقديسين ولا تقسم إلّا بسيدى البسطامي .

وقيل إنه كانت لديه شجرة نسب تلحقه بأبي يزيد البسطامي الصوفي المعروف ، وقد ذكرت لي والدتي أن أصلهم من فارس ، ولكن أهلها نزحوا إلى تركيا ثم وفدوا بعد ذلك إلى مصر .

والدها سليمان ميلاد البسطامى .

وكان رجال البوغاز هؤلاء يتوارثون المهنة أباً عن جدّ ، ويحذقونها بالممارسة ، وكانت لهم قواربهم التى يقودون بها السفن إلى البوغاز ، يشترونها بأموالهم الخاصة شركة فيما بينهم ، ويقسمون أرباح العمل ، بمقتضى حصص توزع على الأسرة بعد وفاة عائلها ، فلما مات جدى لوالدنى ورثت عنه حصته . وقد مات والدها وهو فى الخامسة والثلاثين ، وهى فى الثالثة ، قالت لى : - إنه كان من بين من أطلق عليهم الخديوى اسم « العصاة » لأنه كان من أنصار عرابى .

وإذا كانت صلات جدّه لأبيه قد اتصلت بالشيخ محمد عبده ، وصلات أبيه بمصطفى كامل وعبد العزيز فهمى ولطفى السيد وعبد الخالق ثروت وإسماعيل صدق ، فإن صلات جدّه لأمه قد اتصلت بالمطرب القديم عبده الحامولى ، الذى كان صديقاً حميماً له إلى درجة أنه كان يتزل ضيفاً عليه ، كلما جاء من القاهرة إلى الإسكندرية .

فتاة طموح

وكانت أسماء هى ابنته الصغرى ؛ إذ كانت لها شقيقة وحيدة كبرى يفصل بينهما فى الميلاد ستة إخوة ذكور ، ماتوا جميعاً بعد الميلاد الواحد تلو الآخر . ولما مات الوالد عن أمها خديجة كلا يوسف وهى لا تزال فى أوج الشباب ، اقترنت بزواج أختها المتوفاة لترعى أولاد أختها بجانب الفتاتين ، فى كنف الزوج ، لكنها لم تلبث بعد الزواج ، أن احتضنت الفتاتين ، وأهملت أبناء الزوج من

أختها المتوفاة ، مما جعله يثور على هذا الوضع ويرسل إليها وثيقة الطلاق .
وتزوجت الأخت الكبرى من رجل ، من ذوى اليسار ، كان موظفا
بالدائرة السنية فى الإسكندرية ، ومستحقاً فى وقف ، وأقامت معها الأم
والأخت الصغرى ، فى منزل صغير من طابق واحد ، به حديقة صغيرة فيها
تكية عنب .

وقد كانت الأم والأختان ، ذوات طبع ناريّ حاد ، جعل الأختين تعيشان
فى خصام دائم .

وكانت الأم والأخت الكبرى أميتين ، لا تعرفان القراءة والكتابة ، على
عكس الأخت الصغرى ، التى نالت قدرًا من التعليم . ذلك الأمر المغيّب
بالنسبة إلى فتاة ذلك العصر . لأن كل ما كان يسمح به لبنت مثلها أن تلقاه من
ضروب التعليم هو الإلمام بمبادئ التطريز والحياكة والتفصيل عند « المعلمة »
وكانت فى الإسكندرية وقتئذ معلمة أجنبية فتحت مدرسة لذلك ، ذهبت إليها
مع بعض أترابها فتلقّت عندها ضرباً من التعليم .

لكنها تعلمت أيضاً القراءة والكتابة ، وكان الدافع لذلك ، أنه كان لزوج
أمها ابن شاب ، كان مفتوناً بقراءة القصص ، وإذا فرغ من المطالعة جعل
يقصّ على الأسرة ما قرأ من أعاجيب قصص ألف ليلة وغيرها . فتعلمت القراءة
والكتابة على يد شيخ ، جاء يحفظها القرآن وحروف الهجاء .

وانتهى الأمر بها ، بما عرف عنها من الطبع الحديدى ، وما فيه من عناد
وإرادة واصرار بجانب ذكائها الفطرى وروحها المتوثب الطامح ورغبتها الجائعة ،
إلى أن تقرأ بنفسها القصص والروايات التى سحرت لُبّها .
وبذلك أصبحت فى أسرتها أكثر تنوراً من كل نساء جيلها .

العريس صاحب الوسام

ولما رقى إسماعيل الحكيم إلى درجة مساعد نياية ، بمرتبة عشرة جنهات واستقر به المقام فى مدينة المحلة الكبرى ، قريباً من قريته صفط الملوك ، بدأ يفكر فى الزواج .

وخططت لذلك زوجة أبيه الجديدة ، وهى سيدة بيضاء البشرة على جانب من الجمال والتمدن . وهى اسكندرانىة الأصل ؛ ولهذا اتجهت الأبصار إلى الإسكندرية للبحث فيها عن العروس المنشودة .

وأوضح العريس طلبه ، بقوله :

- إننى لا أريد زوجةً من بيوت الباشوات التى يجلس على أبوابها الأغوات . لأنه كان من المعروف وقتئذ أن رجال القضاء ، تتخاطفهم الأسر الثرية ، لما ينتظرهم من مستقبل فى حكم البلاد ، وقد تزوج أكثر زملائه بالفعل من بنات الباشوات . فلم يكن ذا مطامح من هذا القبيل . كان كلّ مطلبه زوجة ذات وجه حسن وعلى قدر من التعليم والتنوّ .

وجاءت إلى الإسكندرية عمّة العريس وأخته ، لأن والدته كانت متوفاة . وشهدتا حفلة فرح من أفرح أسرة البسطامى ، وقع فيها بصرهما على العروس الموعودة فوجدا فيها بغيتهما من الجمال والانكسار ، كفتاة يتيمة الأب ، يمكن أن تعيش فى كنف الزوج ، بلا تدلّل أو تكبر .

وكانت العمّة والأخت قد جاءتا مرتديتين ثياب « الملس » ومعهما صورة

شمسية للعريس على الصفيح ، وهو متشح بالوسام الأحمر الأخضر وهو وسام عضو النيابة ، لما أن رأت العروس هذا الوسام حتى ذهب لُبها وتمسكت بالعريس ورفضت العرسان المتقدمين إليها من التجار والبوغازية ؛ لأنها كانت فتاة طموحة ، ترى من نافذة البيت المطل على الطريق الموصل إلى سراى رأس التين مواكب رجال الحكومة الكبار في ملابس التشريفة ، ومن بينهم رجال القضاء يمثل هذه الأوسمة . فكان من أحلامها كفتاة الاقتران بزواج له مثل هذا الوسام .

ولم تترك الفرصة تضيق من يدها عندما عارضت الأسرة في قبول العريس ، لأنه عرض صداقاً قليلاً لا يزيد عن مبلغ خمسين « بتو » وهو عملة ذهبية أقل من الجنيه ، فقد طردت الأم أهل العريس ، ولكن الفتاة الراغبة في الزواج من صاحب الوسام ، أرسلت خلفهم صفية خادمتها ، تقول لهم سرّاً ، ارجعوا ثانية فالأم قد قبلت .

ولم يسع الأم يعد ذلك إلا النزول آخر الأمر على إرادة ابنتها المصرة ، ولم ينفع التعنيف ولا التفرع ، ولا صياحها بلهجتها الإسكندرانية :

- ما يجاش غير البنات يحكموا رأيهم ويختاروا العرسان !

فما من شيء ، كان يقف أمام إرادتها ، إذا طلبت شيئاً وصمّنت عليه ، فلا بد أن تناله . إن لها مقدرةً عجيبةً في إخضاع جميع من معها لتلك الإرادة . لم يقف أحد في وجهها إلا أختها الكبرى ، ولهذا خاصمتها وعادتها طول العمر . وعقد القران والزفاف في بيت العدليل في الإسكندرية ، ويقول الحكيم في كتاب « سجن العمر » :

- إن عبده الحامولى حرص بسبب صداقته لأبيها أن يغنى لها فى يوم الزفاف تلك الأغنية المعروفة :

اتمخطرى ياحلوة يازينة ياوردة من جوة جنية
ونقل الحكيم من دفتر الأب يائناً بما صرف من جيهه الخاص بسبب الزواج
كما يلى :

١٧ قرشاً صاعاً ثمن تذكرة درجة ثانية من المحطة إلى صفط الملوك .

١٠ قروش صاغ إلى عبده الخادم من ماهيته .

٢ قرشاً صاعاً أجرة حمار .

٥ قروش صاغ أجرة التخليص على فراخ إلى الإسكندرية .

٥ قروش صاغ بقشيش للخدم .

كان الزواج فى ليلة الخميس ٢٥ أبريل ١٨٩٧ وأمضى العروسان أسبوعاً من شهر العسل فى بيت الأسرة فى الإسكندرية ، حتى يوم الخميس ٢ مايو ، فسافر العريس بمفرده إلى عزبة أبيه فى صفط الملوك ، ومنها إلى قرية « زرقون » لحضور عرس بعض الأقرباء ، وعاد مع أبيه إلى صفط الملوك فى صباح يوم السبت وفى اليوم التالى سافر إلى مقر عمله فى مدينة المحلة الكبرى ، لانتهاه أجازته لمدة عشرين يوماً .

وفى يوم الأربعاء توجه إلى الإسكندرية ، وأقام مع عروسه إلى يوم السبت ٩ مايو ثم عاد بها هى وحجاته إلى المحلة الكبرى ، حيث استقر بهما المقام فيها إلى حين - كما سجل ذلك فى دفتره الخاص .

.. ولطمت العروس

وأقام العروسان بعد ذلك فى مدينة « المحلة الكبرى » بجوار عمل العريس .
لكن العروس الطموح لم تلبث أن شعرت بأول صدمة فى حياتها مع
العريس القانع بمرتبه الضئيل . فيقول الحكيم :

- لما ذهب العروس إلى بيت العريس ، سألته عن مرتبه الحقيقي ، فقال :
- عشرة جنيهات .

فصرخت من الفزع ، وقالت :

- فقط ؟ إنهم قالوا لى عند خطبى : إن مرتبك أكثر من عشرين جنيهًا
غير اللى يخش لك !

فصاح فيها قائلًا :

- يخش لى مين ؟ أنا وكيل نيابة ، أيمكن لوكيل النيابة أن يدخل له شىء
غير مرتبه الرسمى ؟ !

ثم صدمها مرة أخرى ، وقال :

- ومع ذلك ، فالعشرة جنيهات غير كاملة ، لأنه محضوم منها أيضًا
احتياطى المعاش .

وهنا لطمت صدغها ، وشعرت بالخوف من المستقبل ، فقال لها :

- احمدى ربك أنى لم أتزوجك بعد تعيينى كاتبًا « ظهورات » بخمسة

جنيهات ، كما فعل بعض الزملاء .

صاحبة العزبة

ثم رقى بعد ذلك إلى درجة وكيل نيابة في الدرجة الرابعة ، بمرتب خمسة عشر جنبها . ومع ذلك عاشت تخشى الغد ، و تأمّن حياتها في المستقبل . وكان قد آل إليها بالميراث عن أبيها ما قيمته ألف جنبه ، فطلبت من زوجها استغلال هذا المبلغ في مشروع ، فقال لها : إنه فلاح ولا يفهم إلّا في الأرض . وبحث طويلًا عن بغيتها حتى عثر على عزبة من سبعين فدانا في ناحية « أبي مسعود » كانت تسمى عزبة « نوري » كانت معروضة للبيع بمبلغ ثلاثين جنبها للفدان . وكان المطلوب ٢١٠٠ جنبه ، بينما الموجود ألف جنبه فقط . فلم تتردّد في شرائها ، واستكمال باقي الثمن من البنك العقاري ، في مقابل رهن الأطنان للبنك ، على أن يسدّد الدين على مدى ثلاثين عامًا .

ثم يكشف الحكيم الستار عن سرّ عائلي مجهول ، فيقول :
« إن والدتي ظلّت تعترف لوالدي بجميل سعيه وجريه واجتهاده بكلّ همّة وإخلاص في موضوع شراء الأرض ، غير أنها فوجئت ذات يوم ، في غيبة والدي باستلام أوراق ، ما اطّلت عليها حتى جنّ جنونها ، لقد اكتشفت أن زوجها كتب لنفسه ثلاثين فدانا وكتب باسمها الأربعين ، ولكنها ليست باللقمة السائفة ولا الفريسة الهينة ، إنها لم تكذّر ترى وجهه حتى استقبلته بالصراخ والزعيق واتهمته بسوء استغلال التوكيل عنها ، ورمته بألفاظ النصب والاحتيال ، وظلّت تنكّد عليه عيشته بما طبعت عليه من صلابة إرادة حتى

استسلم وأذعن ، ونهض يصحّح الوضع كما شاءت هي ، وبذلك أصبحت حجج الأَطِيان كلّها باسمها وحدها .

قلت لتوفيق الحكيم تعليقاً على تلك الواقعة :

- هذه فضائح عائلية ما كان ينبغي أن تذاع .

فقال لي :

- كان لابد أن تذكر ، حتى لا تصبح مذكراتي إعلانية .

وفي الواقع إن والدته الحكيم كانت صاحبة شخصية متسيطرة على الأب

المسلم ، كانت كلما تحدثت إليه عن أبيه تقول :

- أنا أذكى من أباك . أنا أسرع فهماً من أباك .

وقد كان ذلك طبعها منذ الصغر ، بحكم ما يجري في عروقتها من دم تركي

وتستدل على ذلك من وصف لها في طفولتها ، جاء في الفصل الرابع من رواية

« عودة الروح » على لسان أم سنية في حديثها إلى محسن الذي يعتبر صورةً طبق

الأصل من توفيق الحكيم ، حين قالت له :

- نيتك كانت بنت أترك ، من عيلة تركية ، وكانت أصغرنا ، لكن

كانت شيختنا ، وكلنا كنا نخاف منها ، ونحسب حسابها ، بنت الجندی التركي

أبو شنب أصفر ، ومفیش لعبة نلعبها ، إلّا ونعملها هي الريسة ، وكلنا مسميينها

الملكة بنت السلطان . كانت تحبّ تميز نفسها عتاً ، إن لبسنا في العيد أحمر

تلبس هي أخضر ، وإن لبسنا أخضر ، تلبس هي أحمر ، وبأولنا نهار ما ترعل

منا . كانت تقول لنا :

- أنا بكره أبقي غنية خالص ، واشتریکم عندی جوارى وعید .